المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
وعميد كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

الجزء الثالث عشر

منشورات الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
وعميد كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

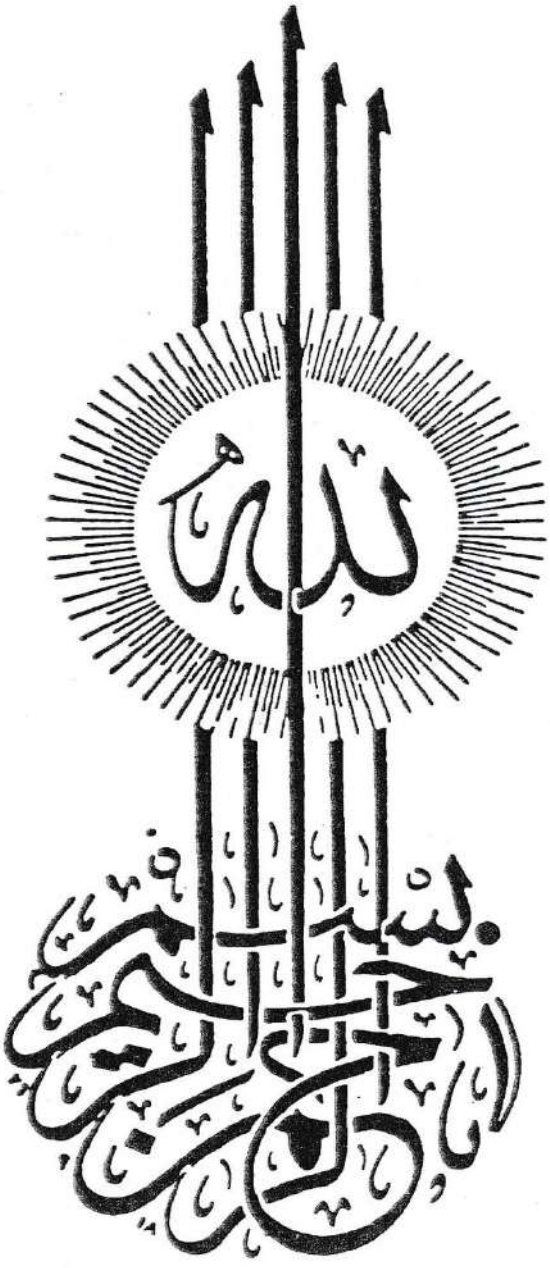
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــــة

بسم الله الرحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء الثّالث عشر من القرآن الكريم يكمل به تفسير سورة يوسف عليه السّلام ، ويغطّي سورة الرّعد ، وسورة إبراهيم عليه السّلام . وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء الاثني عشر السّابقة . إنّ هذا الجزء الثّالث عشر هو ميدان التّفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل ، الذّي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير ، من بين الحقول الخمسة للتّنافس ، في المسابقة الدّوْليّة السّنويّة السّادسة عشرة الّتى عقدتها وزارة الشئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد برئاسة معالي وزيرها الأستاذ الدّكتور عبدالله بن عبدالمحسن التّركي في أثناء الفترة من ١١/٨/١٤١٤هـ إلى ٢٢/٨/١٤١٤هـ الموافق ٢٢/١/١٩٩٤م إلى ٢/٢/١٩٩٤م . وكأنّ هذا التّفسير ، تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت فى مجال التّفسير ، في أثناء المسابقة السّادسة عشرة . علماً بأنّ ميدان المتسابقين في المسابقة السّابعة عشرة عام ١٤١٥هـ إن شاء الله تعالى ، هو الجزء الرّابع عشر من القرآن الكريم .

وأنتهز هذه المناسبة المباركة كيْ أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد ، وعلى رأسها معالي الوزير ، على الفرصة الّتي منحتني إيّاها ، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير ، الّذي حرصت فيه ، كما حرصت في سابقيه على أمور أهمّها ثلاثة :

١ ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ـ أن أشير إلى الدّروس الّتي يمكن أن تستفاد .

٣ ـ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنّه سميعٌ مجيب .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د . حسن محمّد باجودة
عميد كلّيّة اللّغة العربيّة
وأستاذ الدراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أَوَّلاً
تمام
سُورَةُ يُوسُفَ

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ
ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ
إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم
مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ
ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بين يدي التفسير

(يوسف عليه السّلام عزيز مصر)

الآيـــات (٥٣ ـ ٥٧)

يغلب على الاعتقاد أنّ آخر آيات الجزء السّابق وأولى آيات هذا الجزء اللاّحق جرتا على لسان يوسف عليه السّلام وليس على لسان امرأة العزيز . والله تعالى أعلم . وفي ضوء هذا الرّأي يكون معنى آخر آيات القسم السّابق : ذلك الإصرار مني على عدم الخروج من السّجن حتى ثبوت براءتي والجواب على سؤالي : ﴿ ما بال النسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ ﴾ ليعلم العزيز أنّي لم أخنه في أهله بالغيب . ومن البيّن نَفْسُ يوسف عليه السّلام الكبيرة في السّؤال : ﴿ ما بال النّسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ ﴾ الّذي يراعي النّسوة البريئات أساساً ، وذلك بالمقارنة بين هذا السؤال والسّؤال الآخر على لسان الملك : ﴿ ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ﴾ الّذي يراعي النّسوة اللاّتي ثبتت التّهمة في حقّهنّ . ولا ننسى أنّ السّؤالين معاً يتّجهان إلى النّسوة أنفسهنّ . وفي ضوء هذا الرّأي كذلك يكون معنى أولى آيات هذا القسم : وما أبرّىء نفسي ولا أزكّيها وأنا العبد الضّعيف الفقير إلى رحمة ربّه جلّ وعلا . إنّ النّفس بطبعها لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ نفساً رحمها الله تعالى الغفور الرّحيم فتولاّها وعصمها . وبعد ثبوت براءة يوسف عليه السّلام يأمر الملك العادل ملأه بأن يؤتوه بيوسف عليه السّلام ويجيئوا به إلى حضرته كي يستخلصه لنفسه ويجعله خاصّاً به خالصاً من أجله . فلّما جاء يوسف عليه السّلام وكلّمه الملك قال الملك ليوسف عليه السّلام إنّك اليوم لدينا ذو مكانةٍ راسخة ، وأمانةٍ أكيدة . ومع أنّ يوسف عليه السّلام قد طال بُعْدُه عن بلده الشّام ، وزاد شوقه إلى أهله وفيهم والداه ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام ، وهو المصطفى بالرّسالة ، المجتبى بحمل الأمانة ، الدّينيّة فهو أحد رسل الله تعالى ، الدّنيويّة فهو القويّ الأمين بإذن الله تعالى لتسيير دفّة البلاد المقبلة على المجاعة إلى برّ الأمان بإذن الله تعالى ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يضحّي بكلّ رخيص وغال في سبيل تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يطلب من الملك أن يجعله قيّماً على كلّ خزائن مصر الزّراعية والماليّة وما إليهما فإنّه عليه الصّلاة والسّلام حفيظٌ قويّ . عليمٌ أمين . ومن البيّن أنّ المنصب في مثل هذه الظّروف تكليفٌ لا تشريف . وإنّ همّة يوسف عليه السّلام العالية تجعله يطلب هذا التّكليف بأخطر منصب في تلك البلاد آنذاك . ومن أجل تأكيد الطّلب بإسناد المهمّة إليه ، وليس بقصد تزكية النّفس المنهيّ عنها يجيء على لسانه عليه السّلام القول : ﴿ إني حفيظٌ عليم ﴾ والحقيقة أنّنا بصدد درسٍ قرآنيّ عظيم ، مفاده أنّ البلاد حينما تكون في خطرٍ أو مقبلةً على خطرٍ داهم ، وآنس بعضهم القدرة على التّصدّي بإذن الله تعالى للخطرٍ فلا مانع من طلبٍ إسناد المهمّة إليه شريطة تحقّق هذين الشّرطين بإذن الله تعالى الحفظ والعلم ،

الأمانة والقوّة،وما أقلّ الرّجال الّذين يجتمع فيهم هذان الشّرطان معاً ، وما أشدّ فضل الله تعالى على الّذين يتحقّق فيهم هذان الشّرطان معاً . وكما أخرج الله تعالى يوسف عليه السّلام من السّجن مكّن له جلّ وعلا في أرض مصر بأن جعله عزيزها يتبوّأ منها حيث يشاء ، وينزل منها أيّ موضع يريد . إنّ الله سبحانه وتعالى يصيب برحمته من يشاء من عباده ، ولا يضيع عزّ وجلّ أجر المحسنين منهم ، الّذين بلغوا مرتبة الإحسان بالمعنى الذى بيّنه الحديث النبويّ الشّريف بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .

(يوسف عليه السّلام يوفي الكيل لإخوته ويشترط عليهم إحضار أخ لهم من أبيهم إن أرادوا الطّعام مستقبلاً)

الآيات (٥٨ - ٦٢)

بإرادة الله تعالى مضت سبع سنى الرّخاء على أحسن حال . وكان يوسف عليه السّلام مثال القوّة والأمانة ، العلم والحفظ . وبعد ذلك مضى جزءٌ من سنى الجدب السّبع . ولم تكن المجاعة مقصورة على مكانٍ دون آخر ولكنّها طبّقت الآفاق . وكما شملت مصر شملت الشّام . وذاع في الآفاق الذّكر العاطر ليوسف عليه السّلام الّذي يعطي كلّ من وفد عليه حمل بعير من الحبوب ، ويكرم وفادته . وجاء إخوة يوسف عليه السّلام مصر طلباً للميرة ، ودخلوا على يوسف عليه السّلام عزيزها . ومن الطّبيعيّ أن يعرف يوسف عليه السّلام إخوته العشرة وأن ينكروه لتغيّر كلّ ما يجوز عليه التّغيّر في حقّه ، هذا إلى إتقانه لغة البلاد وجهل الإخوة المطبق بها .

وبعد أن جهّز يوسف عليه السّلام إخوته بجهازهم وزوّدهم بالطّعام طلب عليه الصّلاة والسّلام منهم أن يؤتوه بأخٍ لهم من أبيهم إن كانوا صادقين فيما قالوا له ولم يكونوا كاذبين ولا جواسيس ضدّ بلاده . وممّا قالوه إنّ لهم أخاً من أبيهم هلك من قديم الزّمان ، يريدون يوسف عليه السّلام . وقد رغّبهم عليه السّلام بالقول : ﴿ ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ لقد رغّبهم عليه السّلام بقبول بضاعتهم ، وإيفائهم الكيل ، واستضافتهم وإكرامهم . وقد رهّبهم عليه السّلام بالقول : ﴿ فإن لم تأتوني به فلاكيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ إنّهم في حال عدم عودتهم ببنيامين عليهم أن يعلموا بأنّهم لا كيل لهم عنده ، وأنّ عليهم ألّا يقربوا أرض مصر أساساً . ويعد الإخوة يوسف السّلام بأنّهم سيراودون عن بنيامين أباه وبأنّهم فاعلون ذلك . وإنّ القول : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ وليس : سنراود عنه أبانا ، دليلٌ على إصرار

الإخوة على مواصلة السّير في طريقٍ غير طريق يوسف وبنيامين . وبقصد حمل الإخوة على العودة وهم المحتاجون للطّعام والّذين لايستحلّون حراماً يأمر يوسف عليه السّلام غلمانه بوضع البضاعة الّتي دفعها الإخوة ثمناً للطّعام في رحالهم وضِمْن أمتعتهم : ﴿ لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يَرْجعون ﴾ .

(بعد إيتاء الإخوة أباهم الميثاق يأخذون أخاهم بنيامين فى رحلتهم الثّانية إلى مصر)

الآيـــات (٦٣ - ٦٨)

بمجرّد أن عاد الإخوة العشرة من رحلتهم الأولى إلى مصر ودخلوا على أبيهم نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام وفوا بوعدهم مراودة أبيهم عن بنيامين شقيق يوسف ، وجعلوا منع عزيز مصر الكيل عنهم حتّى يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم كي يثبت صدقهم وأمانتهم منطلقاً لطلبهم أن يرسل معهم أخاهم بنيامين كي يكتالوا جميعاً الطّعام . وجرى على لسانهم في حقّ بنيامين القول الّذي جرى على لسانهم في حقّ يوسف : ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ ولمّا كان الإخوة من قبل كاذبين في هذا القول بحقّ يوسف عليه السّلام ولا يعلم ما في السّرائر إلاّ الله تعالى فإنّ يعقوب عليه السّلام أنّب أبناءه حينما قال لهم : ﴿ هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ ! وفرّ يعقوب عليه السّلام إلى بارئه جلّ وعلا خير الحافظين وأرحم الرّاحمين . ولم ينبس الإخوة بعد ذلك ببنت شفة ، وكان ما توقّع يوسف عليه السّلام حينما وضع بإلهامٍ من الله تعالى بضاعة الإخوة في رحالهم . إنّ الإخوة الّذين لا يستحلّون حراماً لمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم الّتي دفعوها ثمناً للطّعام قد رُدَّتْ إليهم فظنّوا أنّ ذلك قد حدث بسبب خطأ الغلمان وسهو الفتيان . ولمّا كان لزاماً عليهم أن يردّوا الثّمن إلى البائع والأمانة إلى صاحبها عزيز مصر لذلك كانوا قادرين سريعاً على الحديث مرّةً أخرى في شأن بنيامين والطّعام . إنّهم قالوا يا أبانا ماذا نريد فوق ما تحقّق ووراء ما سيتحقّق . هذه بضاعتنا الّتي دفعناها ثمناً للطّعام قد ردّت إلينا ، وسوف نحضر الطّعام لأهلنا من مصر ، ونحفظ أخانا بنيامين ، ونزداد كيل بعيرٍ عن الرّحلة الأولى وهو نصيب بنيامين في الرّحلة الثّانية . إنّ ذلك الكيل يسيرٌ على عزيزٍ مصر العادل الكريم . وبما أنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التّوكلّ ولمّا كان الإخوة قد سوّلت لهم أنفسهم الأمّارة بالسّوء أمراً تجاه يوسف فإنّ يعقوب عليه السّلام بعد أن سمع قول الإخوة المعقول أراد أن يستوثق لبنيامين خشية أن يصادف ما صادف شقيقه يوسف .

إنّ يعقوب عليه السّلام يقول لأبنائه العشرة إنيّ لن أرسل معكم بنيامين حتّى تعطوني ميثاقاً وعهداً مؤكّداً بيمين لتأتنّني ببنيامين إلاّ أن يحاط بكم وينالكم بإذن الله تعالى ما لا تستطيعون له دفعاً من سوء . فلمّا أعطوه ميثاقهم وعهدهم المؤكّد قال عليه الصّلاة والسّلام إنّ الله تعالى على ما نقول جميعاً وكيلٌ وشهيد . ولما كان يعقوب عليه السّلام مثال العدل في حبّه أبناءه وكان يخاف عليهم العين خاصّةً وأنّهم في هذه الرّحلة الثّانية سيكونون أحد عشر رجلاً بزيادة بنيامين عن الرّحلة الأولى لهذا فإنّه عليه الصّلاة والسّلام ينهي أبناءه الأحد عشر عن دخول مدينة مصر من بابٍ واحد ، ويأمرهم بأن يدخلوا المدينة من أبوابٍ متباعدةٍ متعدّدة . ويقرّر عليه الصّلاة والسّلام لأبنائه أنّه لا يغني عنهم من الله تعالى من شيء . كما يقرّر أنّ الحكم لله تعالى وحده لا شريك له ، وأنّه يتوكّل عليه جلّ وعلا ، وأنّ على كلّ المتوكّلين أن يتوكّلوا على الله تعالى وحده . ولمّا دخل الإخوة الأحد عشر مدينة مصر من حيث أمرهم أبوهم من أبوابها المتفرّقة ما كان ذلك يغني عنهم من الله تعالى من شيءٍ لكن حاجةً في نفس يعقوب عليه السّلام قضاها وهي الخشية عليهم من الحسد وهو حقّ . ويقرّر السّياق أنّ يعقوب عليه السّلام إنّما ينطلق في أقواله وأفعاله من باعث العلم اللّدنيّ الّذي خصّه الله تعالى به ، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون أنّ وراء عالم الشّهادة عالم الغيب .

(بسبب ثبوت ظاهر السّرقة على بنيامين يبقى في مصر هو وكبير الإخوة)

الآيـــات (٦٩ ـ ٨٧)

يقرّر السّياق أنّ الإخوة لمّا وصلوا إلى مصر ودخلوا على يوسف آوى عليه الصّلاة والسّلام شقيقه بنيامين إليه وأعلمه بطريقته الخاصّة أنّه هو أخوه يوسف وأنّ عليه ألاّ يبتئس ولا يحزن بما كان إخوته يعملون معه من سوء . فلمّا زوّد يوسف عليه السّلام إخوته بالطّعام جعل صواع الملك الّذي كان يشرب فيه الملك من ذي قبل والّذي يكيل به يوسف عليه السّلام آنذاك في رحل شقيقه بالاتّفاق معه من أجل أن يستبقيه عنده في مصر تمهيداً لطلب الأسرة كلّها كي تتحوّل من الشّام إلى مصر . وبعد أن فصلت العير أذّن مؤذّنٌ في أهل القافلة بأنّهم سارقون . ولمّا كان أبناء يعقوب عليه السّلام يشكّلون في القافلة أكبر عددٍ من الأفراد ينتمي إلى أسرةٍ واحدة ذات أرومةٍ عريقة فقد كان الإعلان بالسّرقة مزعجاً لهم أيّما إزعاج . لقد أقبلوا على المسئولين المعلنين عن السّرقة صارخين فيهم : ﴿ماذا تفقدون﴾ ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم﴾

إنّ ثمّة مكافأةً مغريةً تخصّص لمن يجيء بالسّقاية . إنّها حمل بعيرٍ مضمون الأداء في ذلك الوقت الّذي عمّت فيه المجاعة . ويتعجّب الإخوة من اتّهامهم بالسّرقة وهم المعروفون بالإصلاح في الأرض وبالأمانة . ولمّا كان القانون المصريّ الوضعيّ يكتفي بتغريم السّارق مثلي ما سرق في حين يقضي حد السّارق في الشريعة الإبراهيميّة باسترقاق السّارق فذلك معناه أنّ يوسف عليه السّلام يستطيع استبقاء شقيقه عنده إذا تمكّن من تطبيق حدّ السّارق في الشّريعة الإبراهيميّة وليس الحكم المصريّ الوضعيّ . ويلهم الله تعالى يوسف عليه السّلام بأن يسأل الإخوة عن نوع الحكم الّذي يريدون تطبيقه في حقّهم إن ثبت أنّ السّارق واحدٌ منهم . وإلى هذا الإلهام أشار قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء الله﴾ وشاء الله تعالى أن يختار الإخوة الحكم في الشّريعة الإبراهيمية . ونظنّ أنّهم اختاروا هذا الحكم لأنّهم أبناء نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام ولأنّهم كانوا واثقين من براءتهم . فبدأ يوسف عليه السّلام بفحص أمتعتهم ثمّ استخرج السّقاية من رحل أخيه فكانت الطّامة الكبرى على الإخوة . ومن البيّن أنّ وضع الصّواع في رحل بنيامين هذه المرّة من جنس وضع البضاعة في رحال الإخوة في المرّة السّابقة . فثمّة تشابهٌ في الأحداث وهذا التّشابه من أهم مظاهر وحدة القصّة الموضوعيّة ووحدة الأحداث العضويّة . فنحن نتبيّن دور وضع البضاعة في رحال الإخوة في دفع أحداث القصّة إلى الأمام كما نتبيّن دور وضع الصّواع في رحل بنيامين في دفع أحداث القصّة إلى الأمام بدرجةٍ أكبر : ﴿ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾[1] وإنّ هذا النّوع من الإلهام ليوسف عليه السّلام من مظاهر رفع السّميع العليم درجاته عليه السّلام . ولمّا كان ثبوت ظاهر السّرقة في حقّ بنيامين بداية شرٍ مستطيرٍ للإخوة فقد انساقوا في ردّ الفعل مع النفس الأمّارة بالسّوء إلى أبعد مدى فقالوا إن يسرق بنيامين اليوم فقد سرق أخٌ له بالأمس . يريدون يوسف عليه السّلام الّذي يقال إنّه حينما كان صغيراً أخذ صنماً فحطّمه ! إنّ عبارة الإخوة موهمةٌ بأنّ هذا داءٌ أصيلٌ في الشّقيقين وكذبوا وقد أسرّ يوسف عليه السّلام في نفسه القول خطاباً للإخوة : ﴿قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ وكي ينقذ الإخوة والدهم يعقوب عليه السّلام من فاجعة بنيامين الّذي أصبح مسترقّاً طلبوا من العزيز الّذي يرونه دائماً من المحسنين أن يُحْسن إليهم بأخذ أحدهم مكان بنيامين فإنّ له أباً شيخاً كبيراً يتسلّى به عن شقيقٍ له فُقد من

---

(١) سورة يوسف ١١١ .

قديم الزّمان . ويرفض يوسف عليه السّلام أن يأخذ بريئاً بمتّهم ثبت عليه ظاهر السّرقة ولم يدافع عن نفسه . إنّه إن فعل ذلك كان من الظالمين . فلما يئس الإخوة من أخذ العزيز البديل انفردوا عن النّاس متناجين فانفجر كبيرهم كالبركان الثّائر مذكّراً لهم بالموثق الّذي أخذه أبوهم منهم بشأن بنيامين وبتفريطهم من قبل في يوسف . وبناءً على ذلك فإنّ هذا الكبير قد قرّر ألاّ يغادر أرض مصر حتّى يأذن له أبوه في العودة أو يحكم الله تعالى خير الحاكمين له بذلك وذلك بإطلاق سراح بنيامين وربّما بوجود يوسف أيضاً .

ويأمر الأخ الأكبر إخوته بأن يرجعوا إلى أبيهم يعقوب عليه السّلام وأن يقولوا له بصريح اللّفظ إنّ ابنه بنيامين سرق ، وإنّهم ما شهدوا إلاّ بما علموا ، وإنهم ما كانوا عالمين بالغيب حينما أعطوه الميثاق بأن يأتوه ببنيامين حينما يعودون من مصر . ويلقّن الأخ الأكبر إخوته بعض الأدلة على صدقهم بأن يسأل يعقوب عليه السّلام في هذه المسألة أهل قرية مصر الّتي كانوا فيها وأهل القافلة الّتي كانوا فيها من أهل الشّام . إنّه سوف يتأكّد أنّهم صادقون في كلّ ما قالوا . وإنّ يعقوب عليه السّلام الّذي يشعر في أعماقه بأنّ الإخوة سبق أن سوّلت لهم أنفسهم أمراً بشأن يوسف عليه السّلام يتّهمهم الآن بأنّهم سوّلت لهم أنفسهم أمراً بشأن بنيامين . وكما فرّ عليه السّلام إلى الصّبر الجميل بشأن يوسف فرّ إلى الصّبر الجميل بشأن بنيامين . واللّطيف في حال يعقوب عليه السّلام أنّ الأزمات بقدر اشتدادها يزداد أمله في فضل الله تعالى وطمعه في رحمته جلّ وعلا . إنّ كلّ الأمور إذا كان ظاهرها يقول بفقد يوسف فإنّ يعقوب عليه السّلام الّذي علّمه الله تعالى من لدنه علماً وكان ينظر بنور الله تعالى يزداد رجاؤه في الله تعالى أن يأتيه بأبنائه الثّلاثة جميعاً . إنّه جلّ وعلا هو العليم الحكيم . ويعرض يعقوب عليه السّلام عن أبنائه ، ويخلو لأحزانه ، ويقول : ﴿يا أسفي على يوسف﴾ وتبيضّ عيناه الاثنتان من الحزن والبكاء والهمّ الّذي لا يتحوّل ولايقلّ بل يزيد . ويشفق الأبناء على أبيهم ويتعجّبون من استمرار ذكره ليوسف حتّى يشرف على الهلاك أو يكون من الهالكين فعلاً بسبب ذلك

ويبيّن عليه السّلام لهم أنّه إنّما يشكو بثّه وما ينبغي عليه أن ينفث من زفرات وهموم وحزن إلى الله تعالى الّذي يعلم يعقوب عليه السّلام منه جلّ وعلا ما لا يعلمون ، خاصّةً وأنّ الرؤيا الصّادقة ليوسف لمّا تؤوّل بعد . ويأمر يعقوب عليه السّلام أبناءه الّذين كانوا القمّة في التّعاطف معه عليه السّلام بأن يذهبوا ويضربوا في أرض الله تعالى وأن يتحسّسوا الأخبار الحسنة من يوسف وشقيقه بنيامين . وينهاهم عليه السّلام عن

اليأس من رحمة الله تعالى وفرجه لأنّ الّذين ييأسون من رحمة الله تعالى وفرجه هم القوم الكافرون وحدهم . وينفّذ الإخوة أمر أبيهم ونهيه وبذلك نكون أمام اعترافٍ صريحٍ من الإخوة لأبيهم بأنّ لهم يداً في غياب يوسف عليه السّلام . ولمّا كان من متعلّقات جملة : ﴿فتحسّسوا﴾ استعمال الحواسّ ومنها اللّمس ، وقد كان يعقوب عليه السّلام بعد فقده بصره يعتمد على هذه الحاسّة كثيراً فذلك معناه أنّ هذه الجملة : ﴿فتحسّسوا﴾ نابعةٌ من أعماق يعقوب عليه السّلام ومن هنا كان دورها البليغ كبيراً في الآية الكريمة .

(يوسف عليه السّلام يكشف لإخوته عن نفسه في رحلتهم الثّالثة إلى مصر ويطلب جميع أهله)

الآيـــات (٨٨ ـ ٩٨)

لمّا دخل الإخوة على يوسف عليه السّلام عزيز مصر الّذي لم يجىء ذكر اسمه بصريح اللّفظ في الآية الكريمة الأولى اكتفاءً بذكر الاسم صريحاً في الآية الكريمة السّابقة وقفوا بين يديه في ذلٍّ وانكسار وقالوا : يا أيّها العزيز مسّنا وأهلنا ضرّ المجاعة وذلّ الحاجة وجئنا من الشّام ببضاعةٍ يدفعها التّجّار لهوان شأنها فخذها منّا واقبلها وأوف لنا الكيل كما لو كانت البضاعة غير مزجاة والدّراهم لست زيوفاً وتصدّق علينا فإنّ الصّدقة جائزةٌ علينا ونحن مستحقّون لها إنّ الله تعالى يجزي المتصدّقين . وبإذنٍ من الله تعالى يكشف يوسف عليه السّلام لإخوته عن حقيقة نفسه وذلك بطرح السؤال الّذي لا يمكن أن يطرحه إلاّ يوسف عليه السّلام وذلك بسؤالهم في تقريع : هل علمتم ما فعلتم بأخيكم يوسف وقد ألقيتموه في غيابة الجبّ وبأخيه بنيامين من سوء المعاملة إذ أنتم جاهلون طائشون . وفي أسلوب التّعجّب يسألون ، بدلاً من الإجابة على السّؤال ، ويقولون : ﴿أئنّك لأنت يوسف﴾ ! ويجيب يوسف عليه السّلام بأنّه هو يوسف وأنّ الّذي يجلس بالقرب منه أخوه بنيامين . إنّ الله سبحانه وتعالى قد منّ عليهما لأنّهما بفضل الله تعالى قد بلغا مرتبة الإحسان بسبب تقواهما الله تعالى وصبرهما .

وفي أسلوب التّعجّب يقسم الإخوة معترفين بأنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّل يوسف عليه السّلام عليهم ، وبأنّهم قد ارتكبوا في حقّه وفي حقّ شقيقه الخطأ الشّنيع المتعمّد . ويتعفّف يوسف عليه السّلام ذو الخلق العظيم عن مجرّد التّأنيب للإخوة والتّقريع فى ذلك اليوم الّذي تأكّد الإخوة فيه أنّهم الأضعف فيه أمام يوسف عليه السّلام . وحينما يتعفّف

عليه السّلام عن مجرّد التّأنيب والتّقريع في ذلك اليوم فمن باب الأحْرى والأولى أن يتعفّف في غير ذلك اليوم . بل إنّ يوسف عليه السّلام يسأل الله تعالى أرحم الرّاحمين أن يغفر لهم ويتغمّدهم برحمته .

وبمجرّد أن عرف يوسف عليه السّلام بحال والده يعقوب عليه السّلام بعد غياب بنيامين عنه أمر الإخوة بأن يذهبوا فوراً إلى الشّام بقميصه الّذي ناولهم إيّاه وبأن يلقوه على وجه أبيه يعقوب عليه السّلام كي يرتدّ بصيراً معجزةً ليوسف عليه السّلام ، وبأن يأتوه بأبيه وبأهله أجمعين . وبمجرّد أن خرجت العير من مصر وفارقت القافلة بقميص يوسف عليه السّلام وجد يعقوب عليه السّلام في كنعان بفلسطين ريح يوسف عليه السّلام ، وأخبر أهله بذلك وبأنّه يخاف أن ينسبوه إلى ضعف الرّأي بسبب قوله عليه السّلام إنّه يجد في أنفه ريح يوسف وليس رائحته فحسب . ولم يملك الأهل الشّديدو الإشفاق على يعقوب عليه السّلام إلاّ أن يتعجّبوا من إصراره على خطئه القديم وأمله العقيم بأن يجد ابنه يوسف بعد ذلك الغياب الطّويل . وإنّما كان أسلوب الأهل عنيفاً بقصد أن ينسى يعقوب عليه السّلام ابنه يوسف ويتخلّص من آماله وأحلامه . وشاء الله تعالى أن يجيء البشير بقميص يوسف عليه السّلام .

ونظنّ أنّ هذا البشير هو كبير الإخوة الّذي وضع الله تعالى في قلبه القدر الضّروريّ من الودّ ليوسف عليه السّلام وأخيه ، والّذي قرّر البقاء في مصر حتّى يأذن له أبوه في العودة أو يحكم الله تعالى له خير الحاكمين بذلك عن طريق علم يعقوب عليه السّلام ، بعد نيل بنيامين حرّيّته ، بأنّ بنيامين نفسه السّبب في استرقاقه ، بل وربّما عن طريق وجود يوسف . وبمجرّد أن ألقى البشير قميص يوسف عليه السّلام على وجه يعقوب عليه السّلام ارتدّ بصيراً ، معجزةً ليوسف عليه السّلام .

وقال يعقوب عليه السّلام للأهل في المقام الأوّل ثمّ للأبناء : ﴿ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ويطلب الإخوة من يعقوب عليه السّلام أن يستغفر لهم ذنوبهم الكُثْر الّتي ارتكبوها في حقّه عليه السّلام وفي حقّ يوسف عليه السّلام وفي حقّ بنيامين ، ويعترفون ليعقوب عليه السّلام كما اعترفوا ليوسف عليه السّلام من قبل بأنّهم كانوا متعمّدين ارتكاب تلك الأخطاء والذّنوب .

ويصحّ أن يكون في نفس يعقوب عليه السّلام شيءٌ على أبنائه ولهذا أجّل استغفار الله تعالى لهم ، ويصحّ أنّه أجّل الاستغفار تحرّياً لأنسب الأوقات كوقت السّحر وليلة الجمعة . ويصحّ أن يكون ثمّة السّببان معاً والله أعلم . إنّ يعقوب عليه السّلام قد استغفر الله تعالى الغفور الرّحيم لأبنائه .

(تأويل رؤيا يوسف عليه السّلام)
الآيـــات (٩٩ ـ ١٠١)

جاء يعقوب عليه السّلام من بلاد كنعان في فلسطين إلى مصر ومعه أبناؤه وآل يعقوب جميعاً . ومن البيّن أنّ هذه هي الرّحلة الأولى إلى مصر في حقّ يعقوب عليه السّلام وآله ، وأنّها الرّابعة في حقّ الأبناء الّذين قاموا من قبل بالرّحلات الثّلاث المتوالية إلى مصر . فلمّا دخل يعقوب عليه السّلام وآل يعقوب والإخوة على يوسف عليه السّلام الّذي خرج لاستقبالهم خارج مدينة مصر ضمّ عليه السّلام إليه أبويه وقال لهم جميعاً : ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ورفع يوسف عليه السّلام أبويه على جهة الخصوص على العرش وسرير الملك وخرّوا جميعاً على وجوههم سجّداً تعظيماً ليوسف عليه السّلام وتكريماً ، وكان ذلك جائزاً في شريعة إبراهيم عليه السّلام وسائر الشّرائع باستثناء شريعة محمّد بن عبدالله ﷺ . وإنّ السّجود ووضع الجبهة والأنف على الأرض دليل التّعظيم والتّكريم من الأمور الّتي تختلف فيها الشّريعة المحمّديّة عن الشّريعة الإبراهيمية وذلك على غرار الاختلاف بين الشّريعتين في حدّ السّارق وأخذ الصّدقة في حقّ البيتين الكريمين . ولمّا كان سجود الأبوين والإخوة ليوسف عليه السّلام تعبيراً لرؤياه الّتي رآها وهو صغير وقصّها على أبيه وكان ذلك قبل أربعين عاماً فيما يقال فإنّ يوسف عليه السّلام ينادي أباه في ذات الطّريقة اللّطيفة الّتي ناداه بها عليه الصّلاة والسّلام حينما أراد أن يقصّ عليه رؤياه وهو صبيّ : ﴿ياأبت﴾ ويقرّر يوسف عليه السّلام أنّ هذا السّجود هو تأويل الرّؤيا الّتي رآها والّتي تمثّلت في سجود الأحد عشر كوكباً وهم الأحد عشر أخا ، وسجود الشمس وهي أبوه والقمر وهو أمّه عليه السّلام ، ويشير يوسف عليه السّلام إلى أحد مظاهر فضل الله تعالى عليه قبل مجيء الأهل من فلسطين وهو إحسان الله تعالى عليه بإخراجه من السّجن . كما يشير إلى فضل الله تعالى عليهم جميعاً بمجيء الأهل جميعاً من البادية من بعد أن أفسد الشّيطان الرّجيم بين يوسف عليه السّلام وإخوته . إنّ الله تعالى لطيفٌ لما يشاء وإنّه جلّ وعلا هو العليم الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، الحكيم في كلّ أقوله وأفعاله وأحكامه وقدره وفي كلّ شيء . ويكثر مجيء لفظ الرّبّ على لسان يوسف عليه السّلام ، ذلك اللّفظ الحبيب إلى كلّ نفس مؤمنةٍ مطمئنّة ، والّذي ينبّه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ووجوب القيام بالشّكر لله

تعالى عليها هذا إلى قوّة علاقة لفظ الرّب بمواقف الخصوص . وإنّ آخر آيات القسم على لسان يوسف عليه السّلام تبدأ بنداء هذا الرّبّ الذّى ربى يوسف عليه السّلام بنعمه وآلائه وآتاه من الملك وعلّمه من تأويل الرّؤى .

إنّه جلّ وعلا فاطر السّماوات والأرض وموجدهما على غير مثالٍ سابق ومتولّى شئون يوسف عليه السّلام في الدّنيا والآخرة وكلّ عباد الله تعالى . ويسأل يوسف عليه السّلام مولاه جلّ وعلا أن يتوفّاه مسلماً لله ربّ العالمين وأن يلحقه بالصّالحين . ومن البيّن أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر تواضع يوسف عليه السّلام والخلق العظيم الّذي فطره الله تعالى عليه . وحينما يجىء في هذا القسم لفظ العرش وهو في اللّغة سرير الملك ، وحينما يجىء النّصّ على الشّيء من الملك الّذي آتاه الله تعالى يوسف عليه السّلام يصحّ أن نظنّ أنّ يوسف عليه السّلام قد أصبح فعلاً ملك مصر بعد وفاة الملك ، خاصّةً وأنّ الآية الكريمة الرّابعة والخمسين من سورة النّساء قد قرّرت أنّ ربّ العزّة قد آتى آل إبراهيم عليه السّلام ملكاً عظيما إضافةً إلى الكتاب والحكمة . والله تعالى أعلم .

ومن البيّن دور هذا القِسْم القصصيّ من سورة يوسف المكّيّة في تثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك . وهذا التّثبيت يتمّ في هذا القسم القصصيّ بطريقٍ غير مباشر .

لقد عانى يوسف عليه السّلام كثيراً قبل أن يصبح عزيز مصر وربّما ملكها .

وكانت العاقبة بإذن الله تعالى للمتّقين . لقد اجتمع شمل آل يعقوب في مصر أخيراً وكان اليسر بعد العسر بإذن الله تعالى . إنّ هذه المعاني يفهمها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون من سورة يوسف وغيرها من السّور المكّيّة كسورة الكهف . وما أشدّ قدرة هذه القصص على التّسلية وتثبيت الفؤاد . وإذا كان القسم القصصيّ الكبير من سورة يوسف قام بالتّثبيت بطريقٍ غير مباشر فإنّ القسم التّعقيبيّ في نهاية السّورة قام بالتّثبيت بطريقٍ مباشر .

(آياتٌ تعقيبيّةٌ وتثبيتٌ لفؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم)
الآيـــات (١٠٢ ـ ١١١)

يقرّر السّياق أنّ ذلك الّذي قصّ الله تعالى في سورة يوسف من أخبار الغيب الّتي أوحاها الله تعالى إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي ما كان مع إخوة يوسف عليه

السّلام العشرة إذ أجمعوا أمرهم بوضع يوسف، عليه السّلام في غيابة الجبّ وهم يمكرون به عليه الصّلاة والسّلام .

ويقصد بتسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي يكاد يموت حسرةً لإعراض قومه عليه الصّلاة والسّلام عنه يقرّر السّياق أنّ أكثر النّاس ليسوا بمؤمنين رغم حرصه عليه الصّلاة والسّلام على إيمانهم . والعجيب في القوم أنّهم يعرضون عنه عليه الصّلاة والسّلام مع أنّه لا يسألهم من أجر رغم القيام بهذه المهمّة الخطيرة . والقرآن الكريم ليس إلاّ عظةً للعالمين . وكفّار مكّة ومن شاكلهم لا يعرضون عن آيات الله تعالى البيّنات وحدها إنّما يعرضون كذلك عن آيات الله تعالى الكُثْر ، في السّماوات والأرض ، الدّالّة على وحدانيّته جلّ وعلا . ثمّ إنّ أكثر هؤلاء يؤمنون بالله تعالى وهم مشركون في الحقيقة . أنّهم يعترفون بتوحيد الرّبوبيّة ، فالله تعالى هو وحده مربّي عباده بنعمه وآلائه ، ولكنّهم يشركون مع الله تعالى غيره بشأن توحيد الألوهيّة . وما معنى إصرار القوم على الشّرك ؟ أفأمنوا أن يأتيهم عذابٌ من الله تعالى يغشاهم ويغطّيهم؟ أو أمنوا أن تأتيهم السّاعة فجأة وهم لايشعرون بقيامها ولا يستعدّون لها ؟ إنّهم خاسرون في كلّ الأحوال لأنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار . ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لمشركي مكّة ومن شاكلهم بأنّ هذه هي سبيله عليه الصلاة والسّلام وذلك بأن يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . إنّه عليه الصّلاة والسّلام على بصيرةٍ نيّرةٍ من ربّه جلّ وعلا هو ومن اتّبعه عليه الصّلاة والسّلام واهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدّين . كما يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يسبّح الله تعالى وينزّهه جلّ وعلا عمّا ألحقه به الظّالمون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته عزّ وجلّ ، وبأن يعلن بأنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس من المشركين ولكنّه من الموحّدين . وكما أرسل الله تعالى كلّ المرسلين السّابقين رجالاً مصطَفْين من أهل القرى أرسل محمّداً صلّى الله عليه وسلّم من قرية مكّة .

والحكمة في اختيار المرسلين والنّبيّين من أهل القرى قدرة أهل القرى على الفهم والتّجاوب مع الرّسالة بسبب أخذ أهل القرى نصيباً من الحضارة .

إنّ على أهل مكّة ومن شاكلهم أن يتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ وأن يستفيدوا من فترة الإمهال لهم وأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الكافرين المكذّبين السّابقين فيتّعظوا بما حلّ بهم . وعليهم أن يعلموا أنّ الدّار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا . فعليهم أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً فيؤمنوا ويعملوا الصّالحات . وتأتي أكثر آي السّورة الكريمة صراحةً في تثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنجّي

من نشاء ولايُرَدّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ وتختم السّورة الكريمة بتقرير مجموعةٍ من الحقائق . لقد كان في قصص النّبيّين السّابقين عِظَةٌ لأولي العقول السّليمة . وهذا القرآن الكريم وقصصه ما كان حديثاً يُفْتَرَى وقَصَصاً يُخْتلق ولكنّه تصديق الكتب السّماويّة السّابقة ، وتفصيلٌ لكلّ شيءٍ من أمور الدّين في المقام الأوّل ، وهدىً من الضّلالة ، ورحمةٌ لقوم يؤمنون بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم رسولاً ، وبالقرآن الكريم إماماً .

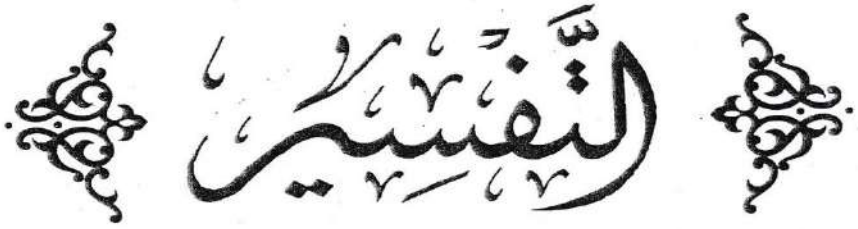
التفسير

((يوسف عليه السلام عزيز مصر))
الآيـات (٥٣ ـ ٥٧)

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

انقسم العلماء فريقين بشأن القائل الّذي جرى على لسانه هذه الآية الكريمة الّتي يبدأ بها الجزء الثّالث عشر والآية الكريمة السّابقة الّتي ينتهي بها الجزء الثّاني عشر لأنّ الآيتين الكريمتين متلازمتان وقد جاءتا على لسان شخصٍ واحد . قال تعالى : ﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وفي أثناء تفسيرنا للآية الكريمة الّتي ينتهي بها الجزء الثّاني عشر سبق أن أشرنا إلى هذين الرّأيين . إنّ من العلماء من ذهب إلى أن الّذي جرى على لسانه الآيتان الكريمتان يوسف عليه السّلام . وكأنّ ثمّة حذفاً في الكلام وذلك على غرار الحذف في الكثير من المواضع في السّورة الكريمة . ومن أقرب المواضع في السّورة الكريمة الّتي فيها حذفٌ الآيتان الكريمتان التّاليتان . قال تعالى[1] : ﴿وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أمّةٍ أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ وسبع سنبلاتٍ خضرٍ وأخَرَ يابساتٍ لعلّي أرجع إلى النّاس لعلهم يعلمون﴾ وكأنّ الكلام المحذوف بين الآيتين الكريمتين : فأرسل الملك فتاه السّاقي إلى يوسف عليه السّلام وأخبر السّاقي يوسف عليه السّلام بالمهمّة الّتي جاءه من أجلها وهي تعبير رؤيا الملك وطلب منه أن يفتيه ﴿في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأخر يابسات﴾ .

وسبق أن أشرنا في أثناء تفسير هذه الآية الكريمة الّتي تقصّ الرّؤيا إلى البلاغة فيها بالحذف وكذلك في الآية الكريمة الثّالثة والأربعين الّتي تقصّ الرّؤيا هي الأخرى . ولدلالة المذكور من الكلام على المحذوف لا يُحَسّ بالحذف لكمال المعنى . إنّ البقر السّبع العجاف الّتي أكلت السّبع السّمان دلّت ، بسبب أكل البقرات السّبع العجاف البقرات السّبع السّمان ، على المحذوف من الكلام في حقّ السّنبلات السّبع اليابسات الّتي التفّت على السّبع السّنبلات الخضر حتى أهلكتها . ومن العلماء الّذين رأوا هذا الرّأي ابن

---

(١) سورة يوسف ٤٥ و ٤٦ .

عبّاسٍ رضي الله تعالى عنهما[1] ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضّحّاك والحسن وقتادة والسّدّي[2] ومن المفسّرين ابن جرير[3] .

وإنّ من العلماء من ذهب إلى أنّ الّذي جرى على لسانه الآيتان الكريمتان امرأة العزيز . وحجّة هؤلاء العلماء اتّصال الكلام على لسان امرأة العزيز . ومن العلماء الّذين رأوا هذا الرّأي الإمام أبو العبّاس ابن تيمية . ومن المفسّرين ابن كثير الّذي يقول في حقّ هذا الرّأي[4] : «وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصّة ومعاني الكلام . وقد حكاه الماورديّ في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العبّاس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيفٍ على حدة» وكذلك يقول في موضعٍ آخر عن هذا الرّأي[5] : «والقول الأوّل أقوى وأظهر لانّ سياق الكلام كلّه من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السّلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك» .

ونحن نميل - والله سبحانه وتعالى أعلم - إلى أنّ الّذي جرى على لسانه الآيتان الكريمتان يوسف عليه السّلام لأسبابٍ أهمّها أنّ الآيتين الكريمتين تشتملان على فيضٍ من المعاني السّامية الأقرب اقتباساً من نور النّبوّة وهديها .

والمعروف أنّ يوسف عليه السّلام هو وحده ، بفضل الله تعالى ، مصدر التّعاليم السّماويّة في أرض مصر آنذاك ، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام إنّما أكرمه الله تعالى بدرجة النّبوّة حينما كان في السّجن الّذي زُجّ به عليه الصّلاة والسّلام فيه الظّالمون وفي مقدّمتهم امرأة العزيز الّتي لم تلتق بيوسف عليه الصّلاة والسّلام مطلقاً ، والّتي لم تكن تريد من يوسف عليه السّلام إلاّ أن يفعل ما راودته به عن نفسه وأمرته أن يأتي من فحشاء .

وربّما كان مفيداً أن نذكر معنى الآيتين الكريمتين المتلازمتين في ضوء كلٍّ من الرّأيين .

إنّ معنى الآيتين الكريمتين في ضوء الرّأي القائل بأنّ الآيتين الكريمتين على لسان يوسف عليه السّلام على نحوٍ شبيهٍ بالآتي . والله أعلم . ذلك الرّفض منّي للخروج من السّجن قبل ثبوت براءتي وإصراري على الإجابة على هذا السّؤال : ﴿ما بال النّسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ﴾ ليعلم عزيز مصر الّذي أكرم مثواي أنّي لم أخنه في أهله في حال

---

(١) تفسير الطّبري ٢/١٣ وتفسير ابن كثير ٤٨١/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ .

(٣) تفسير الطّبري ٢/١٣ و٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٢ .

غيبته فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يهدي كيد الخائنين ولا يسدّد خُطا الهاتكين للأعراض . وما أبرّىء نفسي وأنا العبد الضّعيف ولا أزكّيها وأنا الفقير لرحمة ربّي جلّ وعلا وعونه لأنّ النّفس الإنسانيّة بطبعها نفسٌ أمّارةٌ بالسّوء إلا نفساً رحمها ربّي جلّ وعلا وتداركها بلطفه . إنّ ربي غفور لكلّ ذنب رحيمٌ بكلّ عبد تاب إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً وأناب .

وإن معنى الآيتين الكريمتين في ضوء الرأي الآخر : ذلك الاعتراف منّي بأنّي أنا الّذي راودت يوسف عن نفسه ليعلم يوسف أنّي لم أخنه في حال غيبته عن مجلس الملك بسبب سجنه . إنّ الله سبحانه وتعالى لايهدي كيد الخائنين الّذين يفترون على النّاس الكذب . ومن البيّن أنّ كيد الخائنين على لسان يوسف عليه السّلام ذو علاقةٍ بالخيانة في مجال العِرْض والشّرف ، وأنّ كيد الخائنين على لسان امرأة العزيز ذو علاقةٍ بالخيانة في مجال الكذب والافتراء . وكأنّ امرأة العزيز تترفّع الآن عن الكذب على يوسف عليه السّلام في أثناء غيابه ، وهي الّتي لم تترفّع من قبل ولم تتعفّف عن اتّهامه وجهاً لوجه بإرادته السّوء بها وارتكاب الفحشاء معها . ولا ننسى أنّ الخيانة ترتبط بالعِرْض وليس بالكذب .

ومعنى الآية الكريمة الثّانية لايختلف سواءٌ ذهبنا إلى أنّها على لسان امرأة العزيز أو على لسان يوسف عليه السّلام .

وإذا كانت الآية الكريمة قد تحدّثت عن النّفس الأمّارة بالسّوء فإنّ ثمّة نوعين آخرين من النّفوس تحدّث عنهما القرآن الكريم ، أحدهما النّفس اللّوّامة الّتي تلوم نفسها على التّقصير وإن اجتهدت في الإحسان . ويلحق بذلك النّفس اللّوّامة على المعاصي وعلى التّقصير . جاء في سورة القيامة[1] قوله تعالى : ﴿لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنّفس اللّوّامة﴾ والنّوع الآخر النّفس المطمئنّة الّتي جاء ذكرها في سورة الفجر . قال تعالى[2] : ﴿ياأيّتها النّفس المطمئنّة . ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة . فادخلي في عبادي . وادخلي جنّتي﴾ .

---

(١) الآية ١ و ٢ .

(٢) سورة الفجر ٢٧ - ٣٠ .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

لقد ثبتت براءة يوسف عليه السّلام باعتراف النّسوة ضِمْناً بحضرة الملك بأنّهنّ اللّائي راودن يوسف عن نفسه وذلك في القول عنهنّ : ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ وباعتراف امرأة العزيز صراحةً بأنّها هي الّتي راودت يوسف عن نفسه وذلك في القول عنها : ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصّادقين﴾ وبعد ثبوت براءة يوسف عليه السّلام ، وتأكّد أمانته للملك أمر الملك خاصّته أن يؤتوه بيوسف عليه السّلام كي يستخلصه لنفسه ، وكي يصطفيه ويجعله من خلصائه وأصفيائه على جهة الخصوص . ونستطيع أن نفهم من جملة : ﴿أئتوني به﴾ بعد المسافة بين قصر الملك وسجن يوسف عليه السّلام بسبب استعمال القرآن الكريم جملة : ﴿أتى﴾ في الدّلالة على البعد . وثمّة كلامٌ محذوفٌ مفاده أنّ خاصّة الملك ذهبوا إلى يوسف عليه السّلام وأخبروه بطلب الملك حضوره وبالغاية من هذا الطّلب وهو اصطفاء الملك ليوسف عليه السلام واستخلاصه لنفسه دون غيره من المسئولين في الدّولة وجهاتها الرّسميّة . وذلك الطّلب للاستخلاص يعني ضمناً براءة يوسف عليه السّلام الّتي حينما علم بها جرى على لسانه الآيتان الكريمتان السّابقتان على نحو ما رجّحنا ـ والله تعالى أعلم ـ وحينما خرج يوسف عليه السّلام من السّجن إلى بلاط الملك قال الملك ليوسف عليه السّلام إنك اليوم يا يوسف لدينا ذو مكانةٍ راسخة وفي نظرنا ذو أمانةٍ ثابتة .

ولمّا كان أنبياء الله تعالى أكبر النّاس نفوساً كان ردّ يوسف عليه السّلام من الأدلّة على ذلك في قول الحقّ جلّ وعلا .

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

كي نتبيّن شيئاً من نفس يوسف عليه السّلام الكبيرة ، وكي نستحضر بعض فوائد الدّرس العظيم الّذي يلقيه يوسف عليه السّلام من منبر القرآن الكريم على شباب أمّة الإسلام على جهة الخصوص نحن بحاجة إلى استرجاع شريط أهمّ المعالم في حياة يوسف عليه السّلام الشّابّ المسلم لله ربّ العالمين الّذي اصطفاه الله تعالى بدرجة النّبوّة وجمع له بين حسن ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة .

كلّنا على علمٍ بأنّ يوسف عليه السّلام قد زجّ به إخوته وهو طفلٌ صغيرٌ في غيابة الجبّ فالتقطه بعض السّيّارة الّذين باعوه في سوق الرّقيق بمصر على أنّه عبد . وشاء الله تعالى أن يشتريه عزيز مصر الّذي أمر زوجته أن تكرم مثواه . وكان يوسف عليه السّلام الّذي امتلأت نفسه بتعاليم الإسلام لله ربّ العالمين في بيت والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام مثال الشّابّ المؤمن المستقيم ، وبخاصّة حينما بلغ أشدّه ، فأكرمه الله تعالى بأن اصطفاه بالحكمة وبالعلم اللّدنّي . وكان شقاء يوسف عليه السّلام مع النّسوة اللاّتي راوَدنه عن نفسه قد بلغ أوجه في مراودة امرأة العزيز له وهو عليه السّلام في بيتها . ولقد همّت امرأة العزيز به عليه السّلام . وهمّ بها عليه السّلام لولا أن رأى برهان ربّه . وفرّ عليه السّلام من امرأة العزيز الّتي غلّقت الأبواب فلحقت به وأمسكت بقميصه الّذي قدّته من دبر واتهمت المرأة يوسف عليه السّلام بإرادته السّوء بها وعيّنت العقاب ، وبرّأ الله تعالى يوسف عليه السّلام الّذي قال للزّوج بصريح العبارة إنّها هي الّتي راودته عن نفسه . وتمّت البراءة عن طريق قميص يوسف عليه السّلام الّذي قدّته المرأة من خلف يوسف فتأكدّ للشّاهد من أهل المرأة براءة يوسف عليه السّلام وأسدل السّتار على الفضيحة ، ليس لأنّ يوسف عليه السّلام بريءٌ ولكن لأنّ المرأة متّهمة ! وأصرّت المرأة على مطاردة يوسف عليه السّلام لإرضاء نزوتها وإرواء شهوتها وكذلك النّسوة . وآثر يوسف عليه السّلام السّجن على ارتكاب جريمة الزّنى ، ثمّ بدا للقائمين على شئون ذلك المجتمع المترف الذي تسيطر على رجاله النّساء أن يُسْجَن يوسفُ عليه السّلام البريء حتّى تهدأ الشّائعات وينسى المجتمع فضائح امرأة العزيز والنّسوة في مطاردة يوسف عليه السّلام ومراودته عن نفسه . ويدخل عليه السّلام السّجن ظلماً وعدواناً . وفي السّجن يكرم الله تعالى يوسف عليه السّلام بدرجة النّبوّة ، فإنّا نجده عليه السّلام قادراً بإذن الله تعالى على إخبار الفتيين المماثلين له في السّنّ واللّذين دخلا السّجن معه رجْلاً برجل كلّ مرّةٍ بنوع الطّعام الّذي سوف يأتيهما . هذا إلى كون معجزته عليه الصّلاة والسّلام هي القدرة على تعبير الرّؤى . وحينما طلب كلٌّ من الفتيين في السّجن من يوسف عليه السّلام تعبير رؤياه دعاهما عليه السّلام إلى دين الإسلام لله ربّ العالمين بين يدي التّعبير للرّؤيَيْن . وظلّ يوسف عليه السّلام يدعو إلى الله تعالى في السّجن . وقال عليه السّلام للسّاقي الّذي نجا من القتل اذكرني عند ربّك وسيّدك الملك فأنساه الشّيطان الرّجيم ذكره عند سيّده الملك فلبث عليه السّلام بضع سنين حتّى رأى الملك رؤياه الّتي عبّرها له يوسف عليه السّلام . وأصرّ يوسف على ثبوت براءته قبل أن يخرج من السّجن ، وبعد

ثبوت براءته عليه السّلام دعاه الملك كي يستخلصه عليه السّلام لنفسه .

لقد كان المنتظر من أيّ شخص غير يوسف عليه السّلام بعد أن يخرج من السّجن أن يتّجه إلى وطنه وأهله لايَلْوِي على شيء . أمّا يوسف عليه السّلام الكبير النّفس ، العظيم الهمّة الّذي اصطفاه الله تعالى بالنّبوّة ، والّذي يعلم مدى حاجة المجتمع المصريّ لنور الوحي وتعاليم السّماء ، والّذي ينتظر تعبير رؤياه الّتي قصّها على أبيه فنهاه عن قصّها على إخوته خشية الحسد ، أمّا يوسف عليه السّلام فإنّه يعلم أنّ ثمّة رسالةً عليه أن يبلّغها وأمانةً عليه أن يؤدّيها . إنّه عليه الصّلاة والسّلام لايفكّر في غير تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة . وإنّ نفسه الكبيرة عليه السّلام وهمّته العالية تجعله يطلب من الملك أن يجعله على كلّ خزائن أرض مصر الزّراعيّة الّتي يجري فيها أطول أنهار الأرض .. وانظر إلى حرف الجرّ «على» الدّالّ على الاستعلاء وعلى إشراف يوسف المباشر على كلّ خزائن مصر الزّراعيّة في المقام الأوّل . ومعلومٌ أنّ جلّ اقتصاد مصر آنذاك مرتبطٌ بالزّراعة . وكأنّ يوسف عليه الصّلاة والسّلام حينما يكون عزيز مصر يكون في منصب رئيس الوزراء بلغتنا الحاليّة أو في منصب وزير الاقتصاد أو وزير الزّراعة .

وينصّ يوسف عليه السّلام على نعتين خصّهما الله تعالى به هما الحفظ بمعنى الأمانة والعلم بمعنى القوّة . وليس القول على لسان يوسف عليه السّلام : ﴿إنّي حفيظٌ عليم﴾ من قبيل تزكية النّفس المنهيّ عنه . وليس القول على لسان يوسف عليه السّلام : ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ من قبيل طلب الإمارة المنهيّ عنه . وإنّما كان طلب يوسف عليه السّلام جعله على خزائن الأرض انطلاقاً من إحساسه عليه السّلام بضخامة المسئوليّة وشعوره وهو الّذي اصطفاه الله تعالى بنعمة النّبوّة فكان ينظر بنور الله تعالى ، وشعوره بأنّه بإذن الله تعالى هو عليه السّلام وَحْدَهُ الأهل للاضطلاع بالمسئوليّة . وإنّما كان ذكره للحفظ والعلم وهما بمعنى الأمانة والقوّة من باب التّأكيد لشعوره عليه السّلام بالمسئوليّة ، والاستعداد للبذل والتّضحية ، وإيثار المصلحة العامّة على الخاصّة . إنّ هاتين الصّفتين من أهمّ الصّفات المطلوب توافرها في القيادة المسلمة النّاجحة . وإنّ النّصّ على هاتين الصّفتين وهما بمعنى الأمانة والقوّة يذكّرنا بالقول على لسان إحدى ابنتي شعيب عليه السّلام في سورة القصص[1] : ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾ ويقول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّمل[2] : ﴿قال عفريتٌ من

---

(١) الآية ٢٦ . (٢) الآية ٣٩ .

الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنّي عليه لقويٌّ أمين﴾ .

ومع أنّ الحفيظ بمعنى الأمين فإنّ في مجيء لفظ الحفيظ المتعلّق بالمسئولية والعمل على لسان يوسف عليه السّلام ، وليس لفظ الأمين المتعلّق بالسّريرة وتحقّق صفة الأمانة ، دليلاً أكيداً على ما قلنا بأنّ ما جرى على لسان يوسف عليه السّلام ليس من باب تزكية النّفس ولكن من باب قوّة الإحساس بعظم المسئوليّة ، وها هو ذا عليه السّلام يجيء على لسانه اللّفظ الّذي يدلّ على الجانب المحسوس من الأمانة الظّاهر بطبعه وهو العمل والحفظ .

ومع أنّ العليم بمعنى القويّ فإنّ يوسف عليه السّلام من قبيل التّأكيد لإحساسه بالمسئولية يجيء على لسانه اللّفظ الذي ليس دونه لفظٌ ولا قبله في الدّلالة على التّواضع وهضم النّفس حقّها . إنّ كلّ عملٍ ينبغي أن يقوم على علم . وإنّ يوسف عليه السّلام الّذي يشعر بعظم المسئوليّة ، وخطورة الموقف ، بقصد أن يسخّر همّته العالية لتلبيغ الرّسالة الّتي ائتمنه الله تعالى عليها ، إذا كان يشير في لفظ الحفيظ إلى الجانب الشّاقّ ، جانب العمل والحفظ ، فإنّه يشير في لفظ العليم إلى الشّرط الّذي ينبغي توافره فيمن يقوم بأبسط الأعمال فكيف بأجلّها وأخطرها ، إنقاذ أمّةٍ بإذن الله تعالى من الضّياع ديناً ودنيا . إنّه شرط العلم .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه كما أنعم الله تعالى على يوسف عليه السّلام بالخروج من السّجن أنعم عليه بالتّمكين له في أرض مصر ، يتبوّأ منها حيث يشاء ، وينزل منها حيث يريد ، ويجد في كلّ مكانٍ نزل فيه أهلاً ، كما يجد في كلّ موضعٍ حلّ فيه سهلا . والمعروف أنّ أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النّبوة الّذي هو منافاة الأجزاء . يقال : مكانٌ بواءٌ إذا لم يكن نابياً بنازله . وبوّأت له مكاناً سوّيته فتبوّأ[1] .

إنّ تمكين الله تعالى يوسف عليه السّلام من أرض مصر ينزل منها حيث يشاء من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بواء» ٦٩ .

مظاهر رحمة الله تعالى الّتي يصيب بها جلّ وعلا ويختصّ من يشاء من عباده الأخيار البررة الأتقياء . والله سبحانه وتعالى لايضيع أجر المحسنين الّذي بلغوا درجة الإحسان ومرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . والمعروف أنّ يوسف عليه السّلام قد نُعِت في هذه السّورة في العديد من المواضع بأنّه أحد المحسنين .

وبشأن أجر الله تعالى عبده على إحسانه كما يتبيّن من الآية الكريمة نستطيع أن نفهم أنّه الحياة الطّيّبة في الأولى . وهذا المعنى قد أكّدته الآية الكريمة من سورة النّحل الّتي أشارت إلى الحياة الطّيّبة في الأولى وإلى الجزاء الأوفى في الآخرة . قال تعالى[1] : ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الجزاء الأوفى في الآخرة .

وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

في أسلوب التّوكيد تقرّر الآية الكريمة أنّ أجر الآخرة عند الله تعالى خيرٌ من ثواب الدّنيا وأبقى للّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم رسولاً ، وبالقرآن الكريم إماماً ، وللّذين كانوا يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي . إنّ أجر الله تعالى يتمثّل في جنّة الخلد الّتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال الصّادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم .

وهكذا جمع الله تعالى ليوسف عليه السّلام في الحياة الأولى بين الدّين في أبهى حلله وأرفع صوره وذلك باصطفائه عليه الصّلاة والسّلام بنعمتي النّبوّة والرّسالة . وقد جاء في سورة غافر[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات فما زلتم في شكٍّ ممّا جاءكم به حتّى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضلّ الله من هو مسرفٌ مرتاب﴾ وبين الدّنيا في هيئة المنصب الرّفيع والجاه العريض فقد أصبح عليه السّلام بنصّ القرآن الكريم عزيز مصر . أمّا أجر الآخرة فإنّه خيرٌ وأبقى بنصّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها .

---

(١) سورة النّحل ٩٧ .

(٢) الآية ٣٤ .

((يوسف عليه السلام يوفي الكيل لإخوته ويشترط عليهم إحضار أخٍ لهم من أبيهم إن أرادوا الطعام مستقبلا))

الآيات (٥٨ ـ ٦٢)

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

بعد أن أصبح يوسف عليه السّلام عزيز مصر مضت بإرادة الله تعالى سبع سنى الرّخاء الّتي كان فيها يوسف عليه السّلام بفضل الله تعالى تطبيقاً عمليّاً للقول على لسانه تعبيراً لرؤيا الملك المتعلّقة بالبقرات السّبع السّمان وبالسّنبلات السّبع الخضر وترجمةً فعليّةً للقول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام في هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿قال تزرعون سبع سنين دَأَباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلّا قليلاً ممّا تأكلون﴾ لقد كان يوسف عليه السّلام مثال المسئول المخلص في عمله ، وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يزرع سبع سنين متواصلةً بجدٍّ واجتهاد ، ويجعل ما يُحْصَد من الحبوب في سنبله كيلا يتسرّب إليه السّوس ويسبق إليه البلى ، والمعروف أنّ بقاء الحبّ في سنبله أحسن وسيلةٍ لتخزين الحبوب وادّخار الثّمرات . وقد ألهم الله سبحانه وتعالى يوسف عليه السّلام هذه الوسيلة لحفظ الحبوب وادّخارها . ولم يسمح يوسف عليه السّلام بإخراج الحبوب من سنابلها إلّا بالقدر الّذي يكفي لإطعام الأمّة ، وما بقي ادّخره لسبع سنى الشدّة الّتي أعلمه الله بها وبسبع سنى الرّخاء ، بواسطة تعليمه جلّ وعلا تأويل الأحاديث ، وتعبيره رؤيا ملك البلاد . وبعد سبع سنى الرّخاء جاءت سبع سنى الشدّة بإذن الله تعالى . ولم يكن الجفاف مقصوراً على أرض مصر وحدها إنّما كان شاملاً جميع المناطق المجاورة بما في ذلك بلاد الشّام حيث يعقوب عليه السّلام وآله وبالتّالي فقد عمّت المجاعة ، ومن بين الّذين عضّتهم المجاعة آل يعقوب عليه السّلام . وقد ذاع آنذاك في العالم أنّ في مصر خيراً كثيراً وأنّ عزيزها يُعْطِي كلّ شخصٍ يريد الميرة حمل بعيرٍ واحدٍ كي يعمّ الخير سائر الأنحاء بإذن الله تعالى طوال سبع سنى الشّدّة . وسمع آل يعقوب تلك الأنباء فقرّر إخوة يوسف العشرة الّذين يكبرون يوسف عليه السّلام أن يذهبوا إلى مصر كي يحصل كلّ واحدٍ منهم على حمل بعير . وإنّما لم يذهب معهم بنيامين شقيق يوسف عليه السّلام لأنّ يعقوب عليه السّلام يتعزّى به عن فقد ابنه الحبيب يوسف عليه السّلام . وجاء إخوة يوسف العشرة من الشّام إلى مصر فدخلوا فوراً على يوسف عليه السّلام فعرفهم وهم له منكرون . ومن الطّبيعيّ أن يعرف يوسف عليه السّلام إخوته وهم عشرة . ومن

---

(١) سورة يوسف ٤٧ .

الطّبيعيّ ألاّ يعرف الإخوة أخاهم يوسف وهو الشّخص الواحد الّذي تغيّر فيه كلّ شيءٍ قابلٍ للتّغيير خلال السّنوات الّتي قضاها عليه السّلام منذ أن ألقى به إخوته في غيابة الجبّ إلى أن أصبح عزيز مصر ومضت سبع سنى الرّخاء وبعض سنى الجدب السّبع . ولا ننسى أنّ ممّا جعل الإخوة لا يعرفون يوسف عليه السّلام إتقانه عليه السّلام لغة البلاد وجهلهم التّامّ بها .

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

الجَهاز : ما يُعَدّ من متاع وغيره[1] يقول : ولمّا حمل يوسف لإخوته أباعرهم من الطّعام فأوقر لكلّ منهم بعيره[2] .

بأخٍ لكم من أبيكم : يعني بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمّه[3].

دخل الإخوة على يوسف عليه السّلام وهو عزيزها ، وطلبوا منه الطّعام ، وجهّزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأعطى كلّ واحدٍ منهم حِمْل بعيرٍ من الحبوب ، وقبِل منهم الثّمن الّذي دفعوه ، وهو عبارةٌ عن بضاعةٍ جاءوا بها من أرض الشّام كي يأخذوا في مقابلها الطّعام من أرض مصر . ونستطيع أن نفهم أنّ يوسف عليه السّلام أطال الحديث مع إخوته إلى أن حملهم على الإشارة إلى شقيقه بنيامين الّذي يتسلّى به والدهم يعقوب عليه السّلام عن أخيهم يوسف الّذي هلك حسب زعمهم . وبقصد أن يُثْبِتَ الإخوة صدقهم فيما قالوا وينفوا عن أنفسهم شبهة التّجسّس الّتي اتّهموا بها طلب يوسف عليه السّلام من إخوته أن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم ، وهو بنيامين تمام الإخوة الاثني عشر . ويلاحظ مجيء جملة : ﴿ائتوني﴾ الدّالّة على البعد . ومع أنّ البعد في الأساس هنا مكانيّ فإنّه يصحّ أن يُفْهم منه البعد النّفسيّ أو المعنويّ لصعوبة هذا الطّلب

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جهز» ١٠١ .

(٢) تفسير الطّبري ٦/١٣ .

(٣) تفسير الطّبري ٦/١٣ .

على الأخوة وهم الّذين فعلوا بيوسف ما فعلوه وعرفوا منزلة بنيامين عند أبيه يعقوب عليه السّلام .

وقد أردف يوسف عليه السّلام هذا الطّلب بترغيبٍ وترهيب . أمّا التّرغيب ففي القول : ﴿ألا ترون أنّي أوفى الكيل وأنا خير المنزلين﴾ إنّ لإيفاء كيل الإخوة مقابلاً وثمناً ، أعني البضاعة الّتي جاء بها الإخوة من الشّام . وإنّ القول : ﴿وأنا خير المنزلين﴾ معناه : وأنا خير من ينزل الضّيف ويكرمه . يقال : أنزلت فلاناً أضفته . والنُّزُل : ما يُعَدُّ للنّازل من الزّاد[1] وهكذا أكرم يوسف إخوته إكراماً فائقاً ، وقَبِل البضاعة الّتي جاءوا بها ثمناً للطّعام ، وأوفى لهم الكيل ولم يَنْقُصْهم شيئاً لأنّه نزّل البضاعة منزلة العملة المعتمدة آنذاك . وهكذا نحن بشأن الترغيب أمام سلسلةٍ من الإغراءات .

وأمّا التّرهيب والحزم ففي الآية الكريمة التّالية . إنّ يوسف عليه السّلام يقول لإخوته : فإن لم تأتوني بأخيكم من أبيكم فلا كيل لكم عندي مستقبلاً أبداً ولا تقربوا بلادي بحالٍ من الأحوال لأنكم أشخاصٌ غير مرغوبٍ فيكم ومتهمون بالكذب وربّما بالتّجسّس .

ويلاحظ أنّ كيل الطّعام الّذي من أجله سافر الإخوة ويسافرون هو المحور الّذي يدور حوله التّرغيب والتّرهيب . لقد كان إيفاء الكيل الموفّى لإكرام الإخوة ، وكان نفي الكيل الموفّى للنّهي عن مجرّد القرب من مصر .

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود[2] قال تعالى ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي نصرفه عن رأيه[3] ومن متعلّقات مادّة : «رود» التّردّد في طلب الشّيء ، والرّفق ومن ذلك المِرْود لتردّده في العين برفق ، والقول : رُوَيْدَ[4] بمعنى الرّفق .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نزل» ٤٨٩ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رود» ٢٠٦ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رود» ٢٠٦ .

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رود» ٢٠٦ .

لم يخف على الإخوة صعوبة الطّلب الّذي كلّفهم به عزيز مصر وحاجتهم الملحّة للطّعام وشرطه الصّارم اللّازم التّحقيق إن أرادوا العودة إليه مرّة أخرى لذلك قالوا إنّهم بمجرّد عودتهم إلى الشام سيراودون أباهم يعقوب عليه السّلام عن شقيق يوسف ، ويعرضون طلب إرساله معهم برفق ، ويكرّرون المحاولة حتّى يأذن لهم بأخذه . وإنّهم في أسلوب التّأكيد بمؤكّدين اثنين يقرّرون أنهم فاعلون ذلك : ﴿وإنّا لفاعلون﴾ .

والّذي يلفت النّظر أنّ الإخوة يجيء على لسانهم القول : ﴿سنراود عنه أباه﴾ وليس : سنراود عنه أبانا . وكأنّ الإخوة يرون أنّهم وهم عشرة في شقّ ، وأنّ يوسف وشقيقه بنيامين في شقّ آخر . ولّما كانت مراودة يعقوب عليه السّلام هي عن بنيامين شقيق يوسف فكأنّ المسألة تعنى يعقوب عليه السّلام وابنه بنيامين ولا تعنيهم بأكثر من علاقتها بالميرة وكونها وسيلةً للحصول على الطّعام .

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

وقال لفتيانه : وقال لغلمانه[1] .

الرّحال جمع رحل ، وذلك جمع الكثير فأمّا القليل من الجمع منه فهو أرحل ، وذلك جمع ما بين الثّلاثة إلى العشرة[2] والرّحل ما يوضع على البعير للرُّكوب[3] .

بإلهام من الله تعالى أدرك يوسف عليه السّلام أنّ الإخوة جادّون في قولهم بأنّهم سيراودون أباهم يعقوب عليه السّلام عن ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السّلام بأن يرسله معهم إلى عزيز مصر إن أراد الطّعام ، وقطعاً هو يريد . وبإلهامٍ من الله تعالى أدرك أنّ يعقوب عليه السّلام سوف يكون عنيفاً في ردّه عليهم هذه المرّة بسبب ما فعلوا بيوسف من قبل . وبإلهام من الله تعالى يأمر يوسف عليه السّلام غلمانه بأن يجعلوا بضاعة الإخوة الّتى دفعوها ثمناً للطّعام فى رحالهم مع الطّعام كي يظنّوا أنّ الثّمن عاد بطريق الخطأ . فإذا فتحوا أمتعتهم في بلادهم وجدوا البضاعة وعرفوا أنّها الثّمن الّذي دفعوه للطّعام ، وهم لا يستحلّون حراماً ، وبالتّالى هم يستطيعون أن يعاودوا الكرّة مع أبيهم بمجرّد وجود البضاعة في رحالهم وأن يرجعوا إلى مصر مرّة ثانية من أجل الحصول على الطّعام وردّ الأمانة إلى أصحابها .

---

(١) تفسير الطّبري ٧/١٣ .

(٢) تفسير الطّبري ٧/١٣ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رحل» ١٩١ .

((بعد إيتاء الإخوة أباهم الميثاق يأخذون أخاهم بنيامين في رحلتهم الثانية الى مصر))

الآيـات (٦٣ ـ ٦٨)

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

أوّل ما يلاحظ على الآية الكريمة ابتداؤها بالفاء العاطفة الّتي تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب ، وكأنّ قطع المسافة من مصر إلى الشّام أمرٌ ينبغي على الإخوة أن يقوموا به . حتّى إذا وصلوا إلى أرض الشّام ورجعوا إلى أبيهم ودخلوا عليه كان أوّل قولٍ مترتّب على الرّحلة قاموا به هو مراودتهم يعقوب عليه السّلام عن بنيامين بأن يرسله معهم إلى مصر في رحلتهم الثّانية إليها . إنّ الإخوة بمجرّد رجوعهم إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنّا الكيل إن لم تُرْسل معنا أخانا بنيامين شقيق أخينا يوسف . فأرسل معنا أخانا بنيامين نكتل لنا وله فقد اشترط عزيز مصر علينا ذلك . وإنّا لأخينا بنيامين لحافظون .

ومن البيّن أنّ الإخوة استغلّوا الحاجة الملحّة للطعام فجعلوا منع العزيز الطّعام عنهم توطئةً لمراودة أبيهم عن بنيامين كي يسمح لهم بأخذه معهم .

ومن البيّن كذلك أنّ الإخوة صادقون في قولهم هنا عن بنيامين : ﴿ وإنّا له لحافظون﴾ بينما لم يكونوا صادقين في القول ذاته الّذي جرى على لسانهم عن يوسف عليه السّلام وذلك في الآية الكريمة الثّانية عشرة . قال تعالى : ﴿أَرْسِلْه معنا غداً يرتَعْ ويَلْعَبْ وإنّا له لحافظون﴾ ومن الطّبيعيّ أن ينكأ هذا الطّلب جرح يعقوب عليه السّلام القديم بسبب يوسف عيله السّلام وقد تجلّى ذلك في الآية الكريمة التّالية :

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

قال يعقوب عليه السّلام للإخوة العشرة الّذين سبق لهم أن وعدوا بحفظهم أخاهم يوسف ولكنّهم لم يحفظوه وردّ على طلبهم مؤنّباً لهم : هل آمنكم على بنيامين إلّا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل وهل حفظكم الّذي تودّون أن تقدّموه لبنيامين من جنس حفظكم الّذي قدّ متموه ليوسف الّذى ذهب معكم ولم يعد ! ومن الطّبيعيّ أن يجيء على لسان يعقوب عليه السّلام هذا القول ، وأن يؤنّب أبناءه على الفعل السّيّء الّذى قاموا به في حقّ يوسف عليه السّلام ، ذلك الفعل السّيّء الّذي كان يشعر به

يعقوب عليه السّلام ، بنور الله تعالى في أعماقه ، وإن كان يجهل طبيعة ذلك الفعل السيّء . ومن الطّبيعيّ أن يحاسب يعقوب عليه السّلام الإخوة على أفعالهم ، أمّا السّرائر فإنّها موكولةٌ إلى الله تعالى . إنّ يعقوب عليه السّلام لم يعلم سوء طويّة الإخوة حينما قالوا في المرّة الأولى عن يوسف عليه السّلام : ﴿وإنّا له لحافظون﴾ كما لم يعلم حسن طويّة الإخوة حينما قالوا في المرّة الثّانية عن بنيامين القول ذاته .

ولمّا كان الله سبحانه وتعالى هو الحافظ وهو جلّ وعلا خير الحافظين فإنّ يعقوب عليه السّلام يفرّ الى الله جلّ وعلا الّذي بيده ملكوت كلّ شيء : ﴿فالله خيرٌ حافظاً﴾ وكأنّ لسان حال يعقوب عليه السّلام يقول : إنه لا قيمة لحفظي أحداً من أبنائي إن لم يحفظه الله تعالى . ولمّا كان يعقوب عليه السّلام فقيراً إلى رحمة أرحم الرّاحمين الّذي يطمع في رحمته بأن يعيد إليه ابنه الحبيب يوسف فإن يعقوب عليه السّلام يعبّر عن هذا الفقر في القول : ﴿وهو أرحم الرّاحمين﴾ .

وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

ما نبغي : ماذا نريد [1] والبَغْي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرَّى ، تجاوزه أو لم يتجاوزه . فتارةً يُعْتَبرُ في القدر الّذي هو الكمّيّة ، وتارةً يُعْتَبرُ في الوصف الّذي هو الكيفيّة . يقال : بَغَيْتُ الشّيءَ إذا طَلَبْتَ أكثر ما يجب ، وابتغيت كذلك . قال عزّ وجلّ : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ وقال تعالى : ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾[2] ونمير أهلنا : ونطلب لأهلنا طعاماً فنشتريه لهم . . يقال منه : مار فلانٌ أهله يميرهم مَيْراً[3] .

بعد أن أنّب يعقوب عليه السّلام الإخوة العشرة على عدم وفائهم بالقول عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بغى» ٥٥ .
(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٨ .

يوسف : ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ لم يستطع الإخوة أن ينبسوا ببنت شفة . ويلاحظ أنّ هذا الموقف الصّعب للإخوة توقّعه يوسف عليه السّلام بنورٍ من ربّه عزّ وجل ولهذا وضع بضاعة الإخوة في رحالهم . ولم يكن أمام الإخوة بعد أن أوصد يعقوب عليه السّلام في وجوههم باب مراودته عن بنيامين إلاّ أن يفتحوا رحالهم ويستخرجوا الطّعام . إنّ هذا هو التّصرّف الطّبيعيّ الّذي يقوم به كلّ قادمٍ من سفرٍ نجح في رحلته وتجارته ومهمّته ، بأن يتفقّد متاعه ويستخرج بضاعته . ويلاحظ أنّ أوّل قولٍ جرى على لسان الإخوة إذا كان متعلّقاً بطلب إرسال بنيامين معهم دليلاً على فرط الاهتمام بالطّعام ، فإنّ أوّل فعلٍ يقوم به الإخوة وهو فتح المتاع دليلٌ على فرط الاهتمام أيضاً . ولمّا فتح الإخوة متاعهم وجدوا بضاعتهم الّتي دفعوها في مصر ثمناً للطّعام قد رُدّت إليهم مع الطّعام الّذي أحضروه معهم إلى الشّام . ومع أنّ جملة ﴿ رُدّت ﴾ في صيغة المبنى للمفعول نفهمها على أنّها تعني البضاعة الّتي ردّها يوسف عليه السّلام فإنّ الإخوة يفهمون أنّ ردّ البضاعة كان بطريق خطأ الفتيان ونسيان الغِلْمان . ونبادر إلى التّنبيه إلى طبيعة العلاقة ووجه الشّبه بين وضع البضاعة في رحال الإخوة في الرّحلة الأولى وجعل السّقاية ، والمراد بها صواع الملك ، في رحل الأخ في الرّحلة الثانية . إنّ الأسلوبين الطّبيعيين من جنس واحد ، وإنّ التّشابه بين الأحداث من وسائل وحدة السّورة الموضوعيّة ، والقصّةً العضويّة .

ولم يملك الإخوة تجاه هذه المفاجأة ، وهم الّذين لا يستحلّون حراما ، وبناءً على ذلك ينبغي ردّ الامانة إلى أصحابها في مصر ، لم يملك الإخوة إلاّ أن ينفجروا قائلين : يا أبانا ما الّذي نبغيه ونريده وراء الحصول على الطّعام كافياً ، وردّ ثمن الطّعام إلينا وافيا ، وفوق الحصول على ميرة الأهل وطعامهم ، وسلامة الأخ بنيامين وحفظه ، وزيادة كيلِ البعير الّذي يخصّ أخانا بنيامين . إنّ زيادة كيل بعيرٍ واحدٍ كيلٌ يسيرٌ وهيّن على عزيز مصر الّذي جمع لنا في المرّة الأولى بين إيفاء الكيل ، وحسن إكرام الضّيف .

وبإرادة الله تعالى حقّق جعل يوسف عليه السّلام ثمن الطّعام في الرّحال الغرض الّذي أراده يوسف عليه السّلام .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

حتّى تؤتون موثقاً من الله : حتّى تعطون موثقاً من الله بمعنى الميثاق[1] والميثاق عقدٌ مؤكّدٌ بيمين وعهد[2] .

إلا أن يحاط بكم : الحائط الجدار الّذي يحوط بالمكان . والإحاطة تقال على وجهين . أحدهما في الأجسام نحو أحطت بمكان كذا . أو تُسْتَعْمَل في الحفظ نحو : ﴿ إنّ الله بكلّ شيءٍ محيط ﴾ أي حافظٌ له من جميع جهاته . وتستعمل في المنع نحو : ﴿ إلّا أن يحاط بكم ﴾ أي إلّا أن تُمْنَعوا[3] .

حيث إنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التّوكّل على الله تعالى فانّ يعقوب عليه السّلام يأخذ بالأسباب الّتي شاء الله تعالى ألّا يأخذ بها حينما ذهب الإخوة بيوسف عليه السّلام . إنّ يعقوب عليه السّلام يقول للإخوة العشرة بصريح اللّفظ : إنّه لن يرسل بنيامين معهم حتّى يؤتوه عليه السّلام موثقاً من الله تعالى ، وحتّى يعطوه ميثاقاً وعقداً مؤكّداً وموثّقاً ليأتنّه ببنيامين دون أن يمسّوه بأدنى سوء إلّا أن يحاط بهم ويحلّ بهم جميعاً قضاءٌ من الله تعالى وقدرٌ لا يستطيعون له صرْفاً ولا دفعاً . ويلاحظ بشأن الميثاق مجيء القول : ﴿ حتّى تؤتون موثقاً ﴾ ومع أنّ المعنى ببساطة : حتّى تعطون عهداً مؤكّداً بيمين وما أشبه ذلك فإنّ علاقة جملة : ﴿تؤتون ﴾ بالأصل : «أتى» الّذي يستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد ، تفيد أنّ هذا الميثاق المطلوب بعيد المنال فهو عقدٌ مؤكّد بيمين وعهد . وإنّ دلالة الأصل : «أتى» على البعد تقوّيها جملة : ﴿لتأتنّني به﴾ والمعنى لتأتنّني به من المكان البعيد الّذي ستسافرون إليه حتّى أراه وأضمّه وأشمّه . كما يقوّيها القول : ﴿فلمّا آتوه موثقهم﴾ .

لقد أعطى الإخوة العشرة أباهم يعقوب عليه السّلام منتهى ما يستطيعون أن يعطوه عليه الصّلاة والسّلام من عهدٍ مؤكّد وموثّق . وبعد أن أخذ يعقوب عليه السّلام بالأسباب : ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الوكيل

---

(١) تفسير الطّبري ٩/١٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وثق» ٥١٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حائط» ١٣٦ .

والشّهيد على ما نقول جميعاً ، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد . وإذا كان يعقوب عليه السّلام قد أعلن توكّله على الله تعالى بلسان الحال فإنّه في الآية الكريمة التّالية أعلن توكّله على الله تعالى بلسان المقال .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

إن الحكم إلاّ لله : ما القضاء والحكم إلاّ لله دون ما سواه من الأشياء فإنّه يحكم فى خلقه بما يشاء فينفذ فيهم حكمه ويقضي فيهم ولا يردّ قضاؤه[1] .

لمّا كان يعقوب عليه السّلام مثالاً للأب المحبّ لأبنائه العادل فى حبّهم جميعاً خلافاً لما وهمه الإخوة من كون يوسف وبنيامين أحبّ إلى أبيهم منهم لأنّهم غفلوا عن طبيعة الحبّ الّذى يختصّ به الآباء بالفطرة صغار أبنائهم ، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام خشي على هؤلاء الإخوة العشرة العين وهي حقّ نقلاً وعقلاً .

إن يعقوب عليه السّلام يقول لبنيه يا بَنِيّ لا تدخلوا مدينة مصر من بابٍ واحدٍ وأنتم عشرةٌ من الرجال أبناء أبٍ واحدٍ وذوو فخامةٍ وجمال . وبعد أن نهاهم عليه السّلام عن الدّخول مجتمعين من بابٍ واحدٍ أمرهم بأن يدخلوا من أبوابٍ متعدّدة ومتباعدة . وكأن لمدينة مصر آنذاك العديد من الأبواب ، والمطلوب من الإخوة أن يمتثلوا أمر أبيهم بأن يدخلوا المدينة من أبوابٍ متعدّدةٍ متباعدة . «قال ابن عبّاس ومحمّد بن كعب ومجاهد والضّحّاك وقتادة والسّدّى وغير واحدٍ إنّه خشي عليهم العين وذلك أنّهم كانوا ذوى جمالٍ وهيئةٍ حسنةٍ ومنظرٍ وبهاء فخشي عليهم أن يصيبهم النّاس بعيونهم . فإنّ العين حقّ تستنزل الفارس عن فرسه»[2] .

ولمّا كان يعقوب عليه السّلام الشّفيق على أولاده لا يملك لهم من الله تعالى شيئاً ولا يغنى عنهم من الله تعالى من شيء فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يعلن عن ذلك ويقرّر

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٨٤ .

ضعفه وعجزه وقلّة حيلته ويبيّن أنّ الحكم كلّه لله تعالى الذى له وحده دون سواه الخلق والأمر والحكم. وإنّه عليه الصّلاة والسّلام ليتوكّل على الله تعالى حقّ التّوكّل، وإنّ على كلّ متوكّل أن يتوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له. وها هو ذا يعقوب عليه السّلام يتوكّل على الله تعالى فيسمح لأبنائه العشرة أن يأخذوا معهم بنيامين أخاهم الأصغر وشقيق يوسف فى رحلتهم الثانية إلى مصر من أجل شراء الطّعام من عزيزها. وإنّ أخذ يعقوب عليه السّلام الميثاق من أبنائه العشرة لا ينافى التّوكّل على الله تعالى. والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ ما قام به يعقوب عليه السّلام هو من العلم اللّدنىّ الّذى خصّه الله تعالى به وحباه إيّاه.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

غادر الإخوة الأحد عشر أرض الشّام متّجهين إلى أرض مصر. ولمّا وصلوا مدينة مصر ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم يعقوب عليه السّلام من أبوابها المتفرّقة خوف العين ما كان ذلك الدّخول من الأبواب المتفرّقة يغنى عنهم من الله تعالى من شيء ولا يدفع عنهم من قضاء الله تعالى من شيء، لكن حاجةً فى نفس يعقوب عليه السّلام قضاها وهي خوف الحسد. ولمّا كانت العين حقّاً وقد قال عزّ من قائل[1] ﴿قل أعوذ بربّ الفلق. من شرّ ما خلق. ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب. ومن شرّ النّفّاثات فى العُقَد. ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد﴾ ولما كان يعقوب عليه السّلام موحًى إليه من ربّ العالمين فإنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ يعقوب عليه السّلام لذو علمٍ لما علّمه الله تعالى إيّاه وحباه به من علم لدنّى، ولهذا أمر أبناءه أن يدخلوا مدينة مصرٍ من أبوابٍ متفرّقة، ﴿ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ أنّ وراء العلم الظّاهر علماً لدنّياً، وأنّ وراء عالم الشّهادة عالم الغيب.

---

(١) سورة الفلق ١ ـ ٥.

((بسبب ثبوت ظاهر السرقة على بنيامين يبقى في مصر هو وكبير الاخوة))

الآيـات (٦٩ ـ ٨٧)

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

آوى إليه أخاه : ضمّ إليه أخاه لأبيه وأمّه[1].

فلا تبتئس : البؤس والبأس والبأساء : الشّدّة والمكروه. إلّا أنّ البؤس فى الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء فى النّكاية. فلا تبتئس، أي لا تلتزم البؤس ولا تحزن[2] يقول : فلا تستكن ولا تحزن. وهو فلا تفتعل من البؤس. يقال منه. ابتأس يبتئس ابتئاساً[3].

لمّا دخل الإخوة الأحد عشر على يوسف عليه السّلام عزيز مصر من أجل الحصول على الطّعام ضمّ عليه الصّلاة والسّلام شقيقه بنيامين إليه، وقرّبه منه، وفى الوقت الملائم كشف له عن حقيقة نفسه وقال له إنى أنا أخوك لأمّك وأبيك. أنا يوسف فلا تبتئس بما كان الإخوة يعملون ولا يتسرّب إلى نفسك شيءٌ من البؤس والحزن، الهمّ والغمّ بسبب قبح المعاملة لك، وسوء الظّنّ بك. إنّ لسان حال يوسف عليه السّلام يقول كما جاء فى القرآن الكريم[4] : ﴿قد جعل الله لكلّ شيءٍ قدراً﴾ وكأنّه عليه السّلام يقول : لقد انتهى بإذن الله تعالى الوقت الّذى كان فيه الإخوة يستطيعون بسبب سوء قولهم لك وفعلهم أن يدخلوا الحزن إلى نفسك.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

السّقاية : هو المسمّى صواع الملك. فتسميته السّقاية تنبيهاً أنّه يُسْقَى به، وتسميته صُواعاً أنّه يكال به (٥)

العير : القافلة فيها الأحمال[6].

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٠ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بؤس» ٦٦ .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١١ .

(٤) سورة الطّلاق ٣ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سقى» ٢٣٦ .

(٦) تفسير الطّبري ١٣/١٢ .